المؤلفات العربية في عالم جديد

«فلنترجم»: هذه العبارة هي عنوان مقالة قصيرة، نشرها ميخائيل نعيمة في مجموعته النقدية المشهورة «الغربال». وما قاله الكاتب اللبناني الكبير قبل ما يقارب التسعين سنة في تلك المقالة ـ وهي صرخة ونداء عالٍ للمثقفين العرب ـ ما زال يصلحُ بصورةٍ عامة حتى يومِنا هذا، ولكني ـ في النهاية ـ سأعكِس الحجة.

«الفقير يستعطي إذا لم يكُنْ له مِن كَدِّ يمينه ما يسدُّ به عَوَزَهُ ـ يقول ميخائيل نعيمة ـ والعطشان إذا جفّ ماءُ بئره يلجأ إلى بئر جاره ليروي ظمأه».

فالترجمةُ نقلُ نصٍّ من جهةٍ إلى جهةٍ أخرى، أو ـ بعبارة أكثر شاعريةً ـ من ضفةٍ إلى ضفةٍ أخرى. هذه الصورة ـ صورة النهر وضفّتَيْه ـ موجودة في كثيرٍ من اللغات الأوروبية. أفعال الترجمةُ كلُّها تصِفُ عملية نقلِ شيءٍ من جهةٍ إلى أخرى سواء عبر نهرٍ أو عبر بحيرةٍ أو عبر هُوّةٍ أو عبر أي شيء. وقد يكون مِثلُ هذا العبور، مِثْلُ هذا النقل وعِراً وصَعْباً ومُتْعِباً وخطيراً ومليئاً بالمغامرات. فالناقل المُخْلِص ـ أعني المترجم ـ قد يتعرّض لأهوالٍ من جهة، وقد يَنْعَمُ بابتهاجاتٍ ونجاحاتٍ من جهةٍ أخرى.

على كل حال، ولكي نتحدث عن أحوال الترجمة، فمن الضروري أنْ نعرفَ ونفهَمَ بدقةٍ «الضفتين» كِلَتَيْهما المربوطتين عن طريق الترجمة.

ونقل النصوص بين «الضفتين: العربية والغربية ـ أعني الأوروبية ـ له تاريخٌ طويل ومراحلُ مختلفة، أهمُّها:

١. المرحلة البغدادية في القرن التاسع الميلادي، وهي المرحلة التي تُرجمت خلالها أعمالٌ عديدة من المؤلفاتِ اليونانية العلمية والفلسفية إلى اللغة العربية.

٢. المرحلة الطُلَيْطلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وهي المرحلة التي تُرْجمت خلالها أعمالٌ عديدة من المؤلفاتِ العربيةِ الفلسفيةِ والعلمية إلى اللغة اللاتينية.

٣. المرحلة الأوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي المرحلة التي تُرْجمت خلالها بعضُ الأعمال الأدبية القديمة ـ وأشهرُها عددٌ من حكايات «ألف ليلة وليلة» ـ من اللغات العربية والتركية والفارسية إلى اللغات الأوروبية.

٤. المرحلة القاهرية ـ والشرقية عامة ـ في القرنين التاسع عشر والعشرين وحتى يومنا هذا، وهي المرحلةُ التي تُرْجمت خلالها وما زالت تُترجم مؤلفاتٌ من كلِّ المجالات ـ علميةً أكانت أم أدبية ـ من اللغات الغربية، وبخاصةٍ الانكليزية والفرنسية ـ إلى العربية.

٥ ـ المرحلة الأخيرة عندنا في الغرب، وهي المرحلة التي نعيش اليوم، حيث يُترجم خلالها قليل من الأعمال الأدبية المعاصرة من العربية إلى اللغات الأوروبية المختلفة.

ومِن المهمّ بالنسبة لِكلّ ذلك، أنْ نَنْظُرَ إلى هذه المراحل نظرةً تاريخيةً، أعني أن نُحلِّلَ في كلِ مرحلةٍ من المراحلِ الخمس «الضفّتَين: الضفّة العارضة والضفة المعروض عليها. فأعتقدُ أننا لنْ نفهمَ بصورةٍ مقبولةٍ المرحلةَ الجديدةَ الصعبة، إلاّ إذا فهِمْنَا أنّ هذه المرحلة تختلف كل الاختلاف عن المراحل السابقة، ولن نستفيد لتحسين الوضع الحاضر إذا بَقينا نحلُمُ بالماضي الجميلِ أو المِثالي.

ففي بغداد، كانت الطبقةُ العربيةُ الحاكمةُ الجديدة تطلُبُ من الرعايا الموجودين في المنطقة التي فتَحَتْها أنْ يُوَفِروا لها المعرفة الموجودة في لغاتٍ لم تكن مفهومةً لدى الفاتحين الجُدد.

وفي طليطلة، كان «الشبابُ الأوروبي» يَتوجّهُ إلى المناطق الأندلسية من وراءِ الجيوش الاسبانية. وهؤلاء الوافدون من الشمال كانوا قد عرفوا وهم في أوطانهم أنّ عند العرب (واليهود) كنوزاً مهمةً من المعارف، فجلبوا الكثيرَ منها لإمدادِ الجامعات الأوروبية الجديدة بها.

وفي أوروبا بعد ذلك بخمسة قرون، قد تغيَّرتْ شروط الترجمة وأسبابها مرة أخرى. كان قد بدأ تراجع الأتراك في البلقان بمعنى أن الخَطَرَ والتهديدَ بالنسبة للأوروبيين كانا قد اختفيا، وبدأ في الوقت ذاته التوسُّعُ الأوروبي في أنحاء شاسعة من الكرة الأرضية. وأيضاً في داخلِ البلدان الأوروبية بدأ التصنيعُ وتغيّراتٌ اجتماعيةٌ مهمّة. وكانت هذه الأخيرة قد أدّت إلى اهتزازاتٍ اجتماعيةٍ ونفسيةٍ، فانطلقَ كثيرٌ من الأدباءِ والمثقّفين إلى البحثِ عن فِرْدَوْسٍ دُنْيويٍّ للتعويض النفسي، فوجدوا الشرق ـ الشرق القديم بحكمته وعاداته العريقة وخياله المبتكر وأدبه الغني..إلخ.

وفي القاهرة وفي غيرها من العواصم الشرقية، لاحَظَ الحُكّامُ في القرن التاسع عشر تفوّق الغرب العلميّ على الشرق، وبناءً على هذه الملاحظة بعثوا طُلاّباً إلى العواصم الأوروبية للدراسة هناك، ودَعَوْا أساتذةً وعلماءَ منها للقيام بالتدريس في الشرق، وشجّعُوا عملية الترجمةِ والتعريب. وترتبط هذه المرحلةُ من مراحلِ الترجمة من العربية واليها باسم رفاعة الطهطاوي، الذي أدار لسنوات عدّة معهدَ الترجمة الذي أصبح فيما بعد كُلّيّة الألْسن في القاهرة، وهذه المرحلة ترتبط أيضاً بأسماء كثيرة من الأدباء والمثقفين اللبنانيين والسوريين، وتَستمرُ بشكلٍ أو بآخر حتى يومنا هذا.

واليوم بالنسبة للترجمة ـ والآن أقصِدُ ترجمة الأعمال الأدبية ـ وهنا تختلف نوعية الضفّتين المذكورتين أعلاه مرةً أخرى كلّ الاختلاف عن أحوالهما السابقة، ومرةً أخرى هذا الاختلاف يتعلّقُ بالأحوال العالمية، أو بعبارةٍ أخرى بعالمٍ يسمّونه عالماً جديداً. وإذا أعرنا أهميّةً لهذه العبارة، كان علينا حينَ نتكلمُ عن التبادل الثقافي، أو بالأحرى عن تبادل الأعمال الأدبية ـ ان نَنْظُرَ في هاتين الضِفّتين بكلّ جِديّةٍ وبكلّ موضوعية، فنجدُ أنّ العالمَ العربيّ اليوم لا يلقى احتراماً، والثقافة العربية لا تُحْتَرمُ كما كان حالُها في الماضي. وأسباب ذلك كثيرةٌ ولا أستطيع تناولها كُلّها، ومنها: أنّ الثقافة العربية ما عادت بالنسبة للغرب مَنْبَعاً للمعرفةِ العلمية، وأنّ العلومَ في العالم العربي أصبحتْ تعتمد على منابع غربية، ومن هذه الأسباب أيضاً، أن الصورة الغربية للعالم العربيّ وثقافتِه بشكلٍ عامّ قد تجمّدت منذ الفترة الرومنطيقية، وهي صورةٌ وهميةٌ خرافية، ومن هذه الأسباب أخيراً أن صورة العرب في أوروبا ممزوجة بل مجبولة بالنفط، والأحداث العُنْفيّة التي يَبثُّ صورَها التلفزيون يوميّاً، وهذا يعني أنّ الصورة مشوّهةٌ بعض الشيء.

على كل حال ـ لِنَعُدْ إلى فكرة الضِفّتين ـ فالجهتان غريبتان الواحدة عن الأخرى إلى حد ما، بمعنى أنّ

الكتاباتِ الغربية ـ سواء منها العلمية أو الفلسفية أو الأدبية ـ وهي أعدادٌ لا يُستهان بها، تَجد طريقها إلى القارئ العربي وإلى السوق العربية، وهذا بفضل المترجمين العرب ودُور النشر العربية الحكومية والخاصّة، والمؤسسات والمعاهد الأوروبية، ودَوْرُ هذه الأخيرة مُهمٌّ جداً أيضاً.

وفي الوقت ذاته، صحيحٌ أنَّ الاهتمامَ الأوروبيَّ بالكتابات العربية محدودٌ جداً ـ كما ذكرتُ ـ ولكنّ هذه المحدودية لاحَظَتها المؤسساتُ الأوروبية ـ حكوميةً أكانت أم خاصّة ـ منذُ زمنٍ طويل، فَبَذَلَ كثيرٌ منها مجهوداً عظيماً لتشجيع ترجمة أعمالٍ أدبيةٍ عربية وللمساعدةِ في توزيعها. وأَذْكُرُ على سبيل المثال، المؤسَّسة السويسرية للثقافة، والمنظمة الثقافية الألمانية. عَرفتْ مِثلُ هذه المؤسّساتِ المشكلةَ، ورأتْ ضرورةَ دعمِ هذه العمليات. ولكنَّ الدعمَ والمساعَدةَ من الضفة الأخرى للأسف غير متوفر حتى اليوم. لا أستطيعُ أن أتناولَ أسباب هذا الوضع، فهي كثيرةٌ ومتنوعة وأنتم أدرى بها مني. على كلٍّ حال ما أراه من تجربتي الشخصية هو أنَّ المؤسسات العربية غيرُ موجودةٍ في الساحة ـ ساحة دعم المترجمين في أوروبا على عملهم الصعب، ولا ننسىَ أنَّهُم يسبحون ضِدَّ التيارِ لنشرِ الثقافةِ والأدبِ العربيّيْن في الغرب.

وأعودُ هنا إلى ما أشرتُ إليه في بداية كلامي، وهو نداءُ ميخائيل نعيمة الذي أُعكسُه الآن، بمعنى أنَّ الأديب اللبنانيَّ المشهور قد دعا العرب لاتخاذ ما هو موجودٌ من كتاباتٍ في العالم غير العالم العربي ولِتعريبها، وأنا أظُنّ بل أكون متأكداً أنّه من الضروري اليوم أنْ يقدّمَ العربُ ما هو موجود في عالمهم لكي يُتَرجَمَ إلى اللغات غير العربية.

دعوني أعْطيكم مثالاً يُوضّح الوضعَ المؤسِفَ المذكور: كنت أنا وثمانيةٌ من الزملاء المستعربين، وهم من بُلدانٍ أوروبيةٍ مختلفة، مشاركين ولِمُدّة ستّ سنوات في مشروعٍ لترجمة نصوصٍ أدبيةٍ وذاتيةٍ عربيةٍ إلى لغاتٍ غربيةٍ متعددة. كان كلُّ مشاركٍ مسؤولاً عن الترجمة إلى لغته الأصلية ونشرِها وتَوزيعها في المنطقة الناطقة بها، وأصبح هذا المشروع شبكةً تَعَاوَنَ من خلالها متَخَصِّصون أوروبيون لترجمةِ الأدب العربي. وقُمْنا بنشرِ أكثرَ من ستّين كتاباً لخمسة عشرَ كاتباً عربياً، منها: «سيرة مدينة» للمرحوم عبد الرحمن منيف، و«عزيزي السيد كواباتا» لرشيد الضعيف، و«يوم الجمعة يوم الأحد» لخالد زيادة، و«دار الباشا» لحسن نصر و«ذاكرة للنسيان» لمحمود درويش.

وهذا المشروع أَسَّستْهُ وموّلتْه مؤسسةٌ هولنديةٌ خاصّة في امستردام، ولكنْ بعدَ انتهاءِ السنواتِ الستّ تَوقفتْ المؤسسةُ عن التمويل ـ وهذا بديهيٌّ بعد مثل هذه الفترة الطويلة، فبحثنا عن مَوْرِدٍ جديد لدعم مواصلة العمل الذي اعتبرناه مهماً، وفيه بُعد نَظَر للتعريف بالثقافة العربية ولتحسين صورتها بين الأوروبيين، وللأسف كان بَحثُنا هذا بِدُونِ جَدوى!

وكنا متأكدين من أنّ هذا العمل يَخدمُ العالمَ العربيَّ وثقافتَهُ في أوروبا، وتساءلْنا: أين العرب الذين نَسمعُ كثيراً عن شكاواهم من الإهمالِ والتَشْويهِ والإهانةِ في الغرب؟ طبعاً الشكاوى مبرَّرةٌ إلى حد ما، ولكن ما هو الحلّ؟ الآن اختفى هذا المشروع الذي كان اسمه «ذاكرة المتوسّط» واختفت معه شبكةُ التجاربِ هذه.

وفي النهاية: ما هي الامكانياتُ لإزالةِ هذا الحاجز؟ أنا متأكّدٌ أنَّ الوضعَ الجديدَ في هذا العالم الجديد ينبغي أن نراه كما هو، فطليطلة والفترة الرومنطيقية قد أصبحت ظواهر تاريخية، وأحوالها لم تَعُدْ أحوال اليوم، والحلم بها لن يُغيِّر وضع الثقافةِ العربية في الغرب.

ولكن في الوقت ذاته، فإن الأوروبيين ما زالوا يحبّون المطالعة عن الشعوب والحضارات الأخرى، ويَرغبون في قراءة نصوص أدبية ومن زوايا مختلفة وفي أساليب متنوعة.

أنا متأكدٌ أنّ الأدبَ هو أكثرُ طريقٍ نجاحاً، وأكثرُ سبيلٍ إثماراً إلى تغيير صورةِ العرب عند الجمهور الأوروبي، لأنّ هذا الأدب، كأيّ أدبٍ في العالم، يَصِفُ ويُقدّم ناس مجتمعاتِه في تعدُّديّتهم وتنوّعيتهم. وأشير بذلك، طبعاً، إلى ضرورة الترجمة والحاجة إلى تشجيعها ـ معنوياً ومادياً ودعوني أختمَ كلمتي قائلاً: إن البكاء على الأطلال لن يغيّر شيئاً وأنّ الشاعرَ لم يُخطئ حين قال:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصلُ الفتى ما قد حصل.

هارتموت فاندريش

مستشرق ألماني يعيش في بيرن في سويسرا،
وقد كتب هذا المقال للكرمل باللغة العربية.